الفصل الأول

نظرة على رسالة جمال حمدان العلمية

انتهج العلامة الراحل الدكتور جمال حمدان، ومنذ مطلع حياته العملية، منهجا علميا يقوم على البحث الدقيق والفكر العقلانى السليم، ومن هذا المنطلق جاب جميع مجالات العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية وغيرها من المجالات الأخرى، وذلك للوصول إلى استنتاجات علمية وعملية لصالح الوطن والمواطن، وكان علم الجغرافيا ــ وهو تخصصه الدقيق ــ بمثابة المدخل إلى فهم شخصية الأمم والدول، وفى مقدمتها بلده مصر التى كرس لها ملحمته الخالدة "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان"، وهو يقول فى مقدمة هذه الملحمة: "إننا فى المرحلة الحالية من تطورنا فى حاجة ماسة إلى فهم كامل لوجهنا ووجهتنا لكياننا ومكاننا، لإمكانياتها وملَكَاتنا".

ولقد أقام جمال حمدان فى هذه الملحمة صرحا علميا شامخا ودرة ثقافية نادرة، تغنى فيها بكل ركن من أركان مصر، حيث خلد عبقريتها إنْ مكانًا أو زمانًا، واستخدم فى كل ذلك طرُقَ البحث العلمى الحديثة ومناهج التأصيل الأكاديمى الرائدة، مازجا فلسفة الجغرافيا بفلسفة التاريخ، وجامعا بينهما وبين علوم وفنون شتى لكى يصل فى نهاية المطاف إلى نوع من المعرفة بأسلوب مبتكر يخرج عن المفهوم التقليدى لهذا العلم أو ذاك، وفى هذا المقام يقول حمدان فى مقدمته لهذه الملحمة الخالدة:

"اجتمعت فى هذا العمل كل "الثنائيات" المعروفة فى الجغرافيا: الأصولية والإقليمية: الطبيعة والبشرية؛ التاريخية والمعاصرة.. وإن عملا بهذا الحجم والطبيعة قد يبدو موسوعيا بالضرورة، غير أنه فى الحقيقة أبعد شيء عن أن يكون موسوعة، بل هو بحق النقيض المطلق للموسوعة، قل ضد ــ موسوعة، وإنما هو ملحمة بكل معنى الكلمة، إلا أنها ملحمة علمية بالدرجة الأولى، وهو أيضا وبطبيعة الحال بحث علمى أكاديمى ومصنف صافٍ يعتمد على مئات المصادر والمراجع، إلا أنه قبل ذلك وبعده نظام فكرى، ونسق منهجى، ومعمار بنيوى، هدفه الأصالة والخلق والجِدَة والحداثة والابتكار أساسا".

ومن الصعب، بل ومن المستحيل أن نأتى هنا فى هذه العجالة على دراسة كل أفكاره ونظيرياته، فالأمر يحتاج إلى مجلدات طويلة، وقراءة متأنية ومتعمقة لمؤلفاته بصفة عامة.

ولقد كان كتاب "شخصية مصر" من أحب الكتب إلى نفس جمال حمدان وأقربها إليه، فهو بالنسبة له موضوع وطنى وقومى، وهو فى هذا الكتاب تطرق إلى رسم صورة عريضة ولكن دقيقة لشخصية مصر، ومصر لا شك موضوع مثالى لذلك، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل ــ فقد جاء منهجه فى هذا العمل الفذ متشابكا ومتعدد المداخل، وقد جمع فيه بين الجغرافيا والتاريخ وعلم البيئة، بل والاقتصاد والزراعة والسياحة والسياسة فى نهاية المطاف، ومن هنا استناده الأساسى إلى النهج التاريخى باعتبار أن للشخصية المصرية جذورها التاريخية، فأصبحت الجغرافيا التاريخية عنصرا جوهريا فى دراسة الشخصية الإقليمية لمصر، والواقع أنه وظف كل مناهج الجغرافيا ولواحقها فى خدمة جغرافية الحياة اليومية والأشياء، كيما تضفى الحيوية والاهتمام على الحقائق الجامدة الصماء وتحيلها حية نابضة ناطقة كما يقول.

وهذه تماما هى عبقرية الإقليم فى نظره، عبقرية تتجلى فى خصوصية ثقافته وعملية تكونها وتتمثل فى نسيجها الوظيفى وتجسيدها لشخصية المكان، وظل جمال حمدان يتساءل عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، فى محاولة للنفاذ إلى روح المكان ليستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة، إلى الهيكل المركب لها أو ما يعرف كاصطلاح عام بعبقرية المكان، التى يتم فيها تشريح كائن عضوى ضخم إلى أعضائه الكامنة الدقيقة، وإعادة تركيبه لصنع عالم صغير نسبيا فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم، وكان من المنطقى بالنسبة له التعرض بالتقييم لنقاط القوة ومكامن الضعف التى قد تنكشف فيها، وهذا ما يقودنا رأسا إلى الجغرافيا التطبيقية، جغرافيا التخطيط ورسم السياسات الإقليمية والاستراتيجية القومية، وبهذا الشكل تصبح جغرافيا التخطيط فى واقعها بمثابة جغرافيا المستقبل، توظف الماضى والحاضر، فى كشف الطريق أمام مستقبل أفضل، وهو ما ركز عليه حمدان فى الجزء الأخير من سِفْره الجليل.

ويقرر جمال حمدان أن النظرية العامة التى يفسر بها شخصية مصر إنما تقوم على التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها وهما الموضع والموقع، ويعنى الموضع: البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها، أما الموقع: فهو صفة نسبية تتحدد طبقا لتوزيعات الأرض والناس والإنتاج حول مصر، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربطه بها، أى أن الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة، وهو يرى مع ذلك أن حجم الموضع لا يتكافأ بالضرورة مع خطورة الموقع، وبينا يدفع الأول إلى قدر من العزلة، يدعو الثانى إلى فيض من الاحتكاك، ولكنه تناقض يقضى إلى التكامل أيضا، وبصيغة رياضية، فإن معادلة القوة فى شخصية مصر هى الموقع × الموضع، وبمعنى آخر، فإن توظيف إيجابياتها يحول التناقض إلى تناسق، ويفجر مكامن القوة.

واستدل حمدان على ذلك بمتابعة مراحل مصر الحضارية، هذه التى تثبت ذبذباتها بين سُمُوق إلى حد الإمبراطورية، وهبوط إلى حد المستعمرة، حقيقةَ التكامل بينهما، فحين تزدهر مصر داخلياً(الموضع) يصبح الموقع محميًّا.... ويصب موارده فى بنيتها وتظفر مصر كقوة إقليمية، أما إذا ضعفت بنيتها تدافعت القوى إليها، لتسيطر على الموقع، ومن ثم الموضع بعده، وبهذه الفرضية يفسر تاريخها، ويقرر أن كيان مصر ومصيرها هى وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قوتها كموضع وقيمتها كموقع، ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل، وبالنسبة للموقع تتبدى لنا فى المحصلة العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر، الآسيوى والإفريقى على مستوى القارات، والقبلى والمتوسطى على المستوى الإقليمى، وهو يرى أن مصر بكل بساطة هى أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية للعالم، غير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضغط والحرارة، فمصر هى "قدس الأقداس" فى السياسة العالمية والجغرافيا السياسية، ومن المتصور تماما، وإن بدرجات متفاوتة، أن تنكمش أو تنقسم كل دول العالم بلا استثناء إلا مصر! لماذا مرة أخرى؟ لأن مصر هى ببساطة من خلق الجغرافيا الطبيعية لا التاريخ ولا السياسة ولا الصدفة ولا القوة، إنها نبت طبيعى بحت.. وتلك حقيقة لا جدال فيها، وهى تبقى نابضة بالحياة وتظل كمثيلاتها من حقائق واستنباطات جمال حمدان صالحة لكل زمان مهما تغير حال الدنيا أو طال الأمد.

***

ولم يكتف صاحب شخصية مصر عندما تناول بالبحث حضارة مصر، باعتبارها إحدى ركائز تلك الشخصية وأحد وجوهها المضيئة، بنقل أو سرد ما قيل أو كتب عن هذه الحضارة شرقا وغربا، بل اجتهد بتفكيره العلمى الأصيل، وبمنهجيته الموضوعية المعهودة، فى التغلغل عبر أصول هذه الحضارة وجذورها، وفى سبر أغوار مكوناتها وحقائقها، وفى البحث عن كنوزها ومقوماتها، كل ذلك

بأسلوبه السهل الممتنع، وسنحاول هنا وبإيجاز شديد عرض بعض ما كتبه عن هذه الحضارة، فقد أرجع فى كتاباته ودراساته تاريخ هذه الحضارة أولا إلى النتيجة المتغيرة علىٰ مر العصور للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك، أى الموضع والموقع على الترتيب، واتباعا منه لهذا النهج، قام بتقسيمها إلى أربع مراحل هى: مرحلة صناعة الحضارة، ثم مرحلة تصدير الحضارة، ثم مرحلة الاكتفاء الذاتى وأخيرا مرحلة استيراد الحضارة.

فأما مرحلة صناعة الحضارة فتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى حين كانت مصر مشتلا ممتازا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة مادتها الخام هى فيض النهر، وبذلك كانت مصر مصنعا لحضارة انبهرت لها الشعوب المجاورة، كما كان لها طابع خاص يتسم بقوة الشخصية والتفرد، وقد كان طبيعيا مع توسع شبكة الاتصالات فى العلم أن يزداد احتكاك مصر بالخارج بعد خروجها من مرحلة الأنهار إلى مرحلة البحار، وأخذ هذا الاحتكاك شكل "تصدير الحضارة" فأصبح "مصنع" الحضارة "متجرا" لها أيضا، وتلك حقيقة عرفتها فينيقيا والشام حتى ميديا وأرض الحيثيين، بل وامتدت عناصرها إلى بابل وآشور، فأخذت هذه الشعوب فن الملاحة عن مصر، كما كانت توجد هناك جاليات مصرية من التجار أو الموظفين أو المحاربين فى العصور الفرعونية. كما ظهر نفوذ مصر الحضارى على يهود العهد القديم، والذين كانوا تابعين لمصر سياسيا أغلب تاريخها سواء أكانوا داخل أرضها أو فى أرض فلسطين، فالحضارة المصرية دمغت ــ كما يؤكد جمال حمدان ــ كل وجودهم المادى والأدبى بل والدينى نفسه المشبع بتأثيرات مصرية عميقة ابتداء من معمار سليمان إلى مزامير داود، كما أن تشتت اليهود وانتشارهم فيما بعد، كان عامل نشر وتمديد غير مباشر للمؤثرات المصرية على نطاق العالم الأوروبى، وإن كان ذلك بدرجات مخففة أو مختلفة.

وهو يرى، والحال هذه، أن العصر العربى الإسلامى ما هو إلا امتداد لمرحلة تصدير الحضارة المصرية، فرغم أن مصر تمثلت الثقافة العربية كلية، فإن النهضة الحضارية العربية التى حدثت من تفاعل العرب مع أبناء البلاد التى دخلوها هى نتاج مشترك أساسا، وكانت اللهجة المصرية دائما أقرب لهجة عربية إلى الاستقامة والاعتدال.

بل إن ممارسة الإسلام نفسه فى مصر بلغت على يد هذه الحضارة العربية درجة من الرصانة والاستواء جعلت من أزهرها قلعة الإسلام وكعبة العلوم الإسلامية، وتكونت فيها طليعة سَدَنَة الإسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه.

وبعد أن تحولت مصر مع بقية الشرق العربى إلى العزلة مع بداية العصر المحيطى فكانت مرحلة الاكتفاء الذاتى فى حدود الدائرة الإسلامية، وحين انتقلت قبلة الحضارة العلمية من الشرق إلى الغرب، واقتحمت الحضارة الحديثة أركان الأرض، وراحت تغزو الشرق كله حضاريا، لم يعدْ للعزلة مكان، ومن هنا بدأت قصة مرحلة "استيراد الحضارة". غير أن هذه العملية لم تكن عملية إحلال أو ذوبان، بل كانت أساسا عملية تبادل حضارى خرجت منه الشخصية المصرية، كما كانت دائما ذات طابع قوى دفين، ولم تفقد قوامها الأصيل.

ويخلص جمال حمدان من كل ذلك إلى نتيجة أساسية، وهى أن دور مصر الحضارى لم يختفِ عبر العصور وإن اختلف من عصر إلى عصر، فكانت إما صانعة الحضارة وإما حافظتها، وفى ذلك يقول: "من المرجح أن مصر فى النهاية قد أعطت العالم على مدى تاريخه عموما أكثر مما أخذت. والعبرة الآن أن مصر تأتى بالضرورة فى وضع وسط على خريطة العالم، ولا ننسى أنها بمقياس الشرق سباقة ومتقدمة، وكانت منذ أوائل القرن الماضى رائدة فى كثير من وجوه التحضر، بل وكادت أن تلاحق الغرب فى بعض إنجازاته الحضارية الجديدة".

ويعود ليؤكد أن "مصر وإذا لم تكن على عتبة الدول العصرية بعدُ، فالثابت أنها لم تعد بعيدة كل البعد، وربما لن تأتى سنة ٢٠٠٠ (كتبت هذه الدراسة فى الثمانينيات وجاءت وفاته المفجعة فى أوائل التسعينيات) إلا وهى كذلك بالفعل، فالموقف كله إنما يذهب ليؤكد توسط موقع مصر بين العالم النامى والمتقدم، قبل البترول كما بعده، إنها قمة، أو على الأقل إحدى قمم العالم النامى، سواء أكان عالما ثالثا فقط أو ثالثا ورابعا معا".

ولقد كان جمال حمدان من أوائل من استشعروا الخطر الداهم المتمثل فى قيام دولة إسرائيل تأسيسا على مبادئ الأيدلوجية الصهيونية التى نادت بإسرائيل الكبرى واغتصاب أرض فلسطين، والتى نجحت فى زرع هذا الإسفين الخطير فى قلب العالم العربى والإسلامى.

ولم يأت هذا من فراغ أو عن تعصب وتحيز، بل استنادا إلى دراسات علمية موضوعية متعمقة تناولت هذه الظاهرة الاستعمارية الجديدة أنثروبولوجيا وتاريخيا وسياسيا واستراتيجيا، وقد نبه جمال حمدان فى العديد من كتاباته وأبحاثه إلى هذه القضية، فكتب يقول: "من الصعب أن تجد بين المجتمعات البشرية المعاصرة مجتمعا يقارب المجتمع "القطيعى" الذى حشدته الصهيونية فى إسرائيل.

وذلك فى مدى تمزقه وتهالكه واعوجاجه، وأن اليهود جملة وتفصيلا ليسوا من بنى إسرائيل، وليس هناك "يهودى تائه" أو متجوّل، وإنما هناك ببساطة يهودى متحوّل. فالصهيونية مجتمع دخيل تماما على فلسطين، وليس لهم فيها جذور أو أصول سواء بالتاريخ أو الجنس سواء باللسان أو الدين، وإن الصهيونية اليوم هى أكبر خطر وتحد يواجه العالم العربى وأن تحرير فلسطين "هو" وحدة العالم العربى السياسية.

وأما أن إسرائيل دولة عنصرية فإن أبواق الصهيونية والاستعمار تحاول أن تقلب الحقيقة رأسا على عقب وتصورها ضحية للعنصرية لا مشتلا لها، والحقيقة أننا لا نعرف جانبا فى دعاوى الصهيونية يجتمع فيها التضليل بالغفلة كما يجتمعان فى هذا الجانب، فحقا كانت النازية "دولية جنسية" كما وصفها علماء السياسة، وحقا كان اضطهاد اليهود هو الوجه الآخر للعنصرية الآرية، لكن أن نسمى هذا "بضد السامية" فهذا هو الخطأ الشائع الذى نجحت الصهيونية فى إدخاله وتمويهه على العالم، وتقبله هذا بلا تفكير، بل ونردده نحن بحسن نية.

ومن هذا كله لا يتبقى من وحدة مشتركة بين اليهود إلا الدين ــ تماما مثلما بدأت، وإذا كان هذا هو الأساس الوحيد لشعورهم المتضخم بأنفسهم ووعيهم الحاد بالذات، فما هو إلا نتيجة للاضطهاد الذى تعرضوا له تقليديا، فقد كان وعى اليهود نوعا من التحدى إزاء الرفض، ولكنه وعى لا يجعل من صاحبه أمة، بل مجرد طائفة: إما مضطهدة وإما متعصبة.

وليس هناك بعد ذلك سر أو معجزة أو لغز خطير فى بقاء اليهود، فالذى حفظ اليهود هو الاضطهاد الخارجى، والصهيونية إنما هى رد فعل لضد السامية، أو هى "ضد ضد السامية" أو كما قال ماركس: "لقد حافظت اليهودية على نفسها بواسطة التاريخ وليس على الرغم منه" أو أخيرا، ما وضح سارتر، أن عدو السامية هو الذى يصنع اليهودى.

وليس هناك إذن شعب أو أمة يهودية، كما قرر بالفعل لينين، وكما عبر ستالين فى كتابه "الماركسية والمسألة اليهودية" حين تكلم عن اليهود "كأمة من الورق" لا، وليس الأمر شبه أمة كما ساوم البعض، وباختصار، فكما اعترف الصهيونى ليون بنسكر شاكيا "لسنا معدودين كأمة عند سائر الأمم".. وليس ثمة قومية يهودية، والصهيونية ليست آخر مشكلة من مشكلات القومية فى أوروبا كما

يوهمون، ولكنها ببساطة آخر موجة استعمارية خرجت من أوروبا وأفرزها القرن الماضى.

لا، وليس ثمة شيء كقومية إسرائيلية ــ كما يريد البعض أن يساوم بعد إنشاء الدولة اليهودية الغاصبة ــ أكثر مما هناك قومية يهودية، وتظل إسرائيل دولة "مصطنعة"، أنشأتها حركة صهيونية "يوتوبية"، هى نفسها منبثقة عن شعب يهودى "وهمى" فإن قيل: كيف يمكن لشعب وهمى غير موجود أن ينشئ فى النهاية دولة مصطنعة، بينما أن كليهما قائم واقع، فليس فى هذا تناقض ينقض الحقيقة، وإنما هو ينقلها ببساطة إلى منطق ومنطقة الاستعمار.

وإنما التناقض المثير والمغالطة حين تتهم الصهيونية "القومية العربية" بأنها "قومية سلبية" (كذا!)، بمعنى أنها لم يجمعها ويدفعها إلا عداؤها لإسرائيل، ولكن الحقيقة أن الصهيونية كما هو ملاحظ تحارب بضراوة وعصبية على المستوى الفكرى ضد النظرية التى تعتبرها رد فعل لضد السامية، وذلك لأنها تجردها من أى مضمون ذاتى وتجعلها مجرد رد فعل سلبى بحت.

حق القوة والأمر الواقع:

على أساس من الدين والتاريخ ــ إذن ــ قامت ادعاءات الصهيونية فى فلسطين، وكما رأينا فلقد ثبت عقم وخواء هذا الأساس تماما، سواء الحق الإلهى المقدس أو حق الوراثة القومى، أو الحق التاريخى كما يمكن أن نسميها معا، ولقد أدرك الصهيونيون أنفسهم أن الحق التاريخى، أو الصلة بين بنى إسرائيل وأرض إسرائيل، "أقل استيحاء للمنطق مما يظن" أى أنها لا تقيم بناء عقليا مقنعا أو متماسكا، ولذا بحثوا عن "العقلانية" كواجهة لدعاويهم ودعاياتهم، تبريرا للاغتصاب أو ليدفعوا بها تهمة الاغتصاب والاستعمار.

وليس هنا متسع لتحليل هذه المحاولات، ولكنا نكتفى بأنها جميعا فشلت، واضطرت الصهيونية وإسرائيل إلى أن تكشف عن حقيقة موقفها ومبرر وجودها الحقيقى والأخير، وهو نطق القوة البحتة والأمر الواقع، أى منطق الاستعمار المباشر بلا مواربة، ومن هذا المنطق يقدمون رؤية مزيفة، مغلوطة، مقلوبة إلى حد لا يكاد يتصور لكل الأحداث والصراعات التى وقعت منذ بدأ الاستعمار الصهيونى وعبر حرب فلسطين حتى اليوم الحالى، والرد على هذه الرؤية المكذوبة يحتاج إلى دراسة خاصة، ولكن يمكننا أن نقرر أن تهافت وتداعى كل حججها وزيفها يدفع بهم فى النهاية إلى موقف التبجح الاستعمارى الكالح سافرا ومعلنا بلا مواربة، وإلى رفض المنطق تماما، وهو ما فتئوا يتهمون به العرب تقليديا!.

فإذا هم يتحولون عن الحديث عن الحق التاريخى إلى الحديث عن حق الوجود: إسرائيل حقيقة واقعة، وليس هناك اختيار، فالاختيار قد تم بالفعل وقد قامت إسرائيل، سواء كان معنى هذا حق الغزو والفتح فإن العلاقات الدولية تقوم على صراع القوى والمصالح لا الأخلاق أو المنطق، والحدود مرسومة بحسب قوة الشعوب، واليهود قد اكتسبوا حق الاحتلال فى إسرائيل، ولو كان العرب قد انتصروا لما قامت، فالصراع قانون الحياة والبقاء للأقوى، ونحن لا يمكن أن نأخذ على الإسرائيليين أنهم يواجهون مشكلة ندبوا أنفسهم لحلها"! "وليس على الإسرائيليين أن يبرروا وجودهم تحت الشمس، أى أن يبرروا أنفسهم، ويقدموا حسابات لأى محكمة عربية فى التاريخ"!.

هذا حقيقة هو الموقف النهائى والدفين لإسرائيل، وهو اعتراف صريح متحد بأنها ظاهرة استعمارية بحتة، من الناب والظفر برهانها الوحيد، قامت على قانون الغاب ومبدأ القوة، وكل حديثهم وعروضهم عن السلام بعد ذلك تتبع أصلا من هذا الموقف الجذرى، ولذلك يمارسونها كمناورة تكتيكية بحتة، فمنذ وايزمان وهم يعرضون الصداقة على العرب، ويطلبون السلام معهم ــ دائما وفقط بشرط واحد:

"أن يعترفوا بحقنا فى الوجود كدولة قومية فى فلسطين" وليس من المسموح لأحد بأن يناقش وجود إسرائيل ولا حقها فى البقاء، وبعد ذلك لم تنقطع "حملات" السلام ولا دعوات "الحوار" الحارة، بنفس الشروط: الوجود الإسرائيلى وحده هو الذى لا يقبل الجدل، ومنه يمكن المناقشة مع العدو فى أى شيء عداه، والعكس صحيح، لا يمكن بناء أى شيء خارج الاعتراف بهذا الأساس الواقع.

ومن هنا نجد أن عرض السلام مقرون دائما باستعراض القوة: "عند الحاجة، نحن نملك من القوة والوعى ما يكفى للدفاع عن أنفسنا" إنه إذن "التعايش أو الحرب" (اقرأ: الركوع والحرب) كما يعبر روبير مزراحى الذى يفلسف الموقف بأسلوب نادر فى التواتيه، الساذجة من ذلك، فهو إذا يتحدث عن "الحل الجدلى" أى التفاهم السلمى والنضج الفكرى، يفسره على أنه "الاعتراف بالعلاقة المتبادلة بين الوجودين العربى والإسرائيلى، بمعنى تجاوز الأمر الواقع المحض نحو حق ذى أساس تاريخى، أى حق نابع من الوجود الفعلى لكلا الموضوعين المعنيين"، وهو بهذا يضع يدنا على آخر مراحل التبرير الصهيونى، أخفاها وأشدها افتضاحا فى الوقت نفسه، وهى تحويل الأمر الواقع إلى حق تاريخى (جديد مكتسب) بدلا من تحويل الحق التاريخى (القديم الساقط) إلى أمر واقع!.

هذا، فى الحقيقة، كل محتوى "السلام الإسرائيلى" (اقرأ: الاستسلام العربى). وليس هناك متطرفون ومعتدلون، حزبيون وإسلاميون، أو صقور وحمائم، فى إسرائيل كما يصور البعض خبثا أو يتصور البعض جهلا، فالطرفان يلتقيان فى النهاية على أن الوجود الإسرائيلى خارج المناقشة، "تابو، سياسى لا يمس، وإلا فإنها الحرب، بل حتى إعادة اللاجئين، لا يختلف موقف الطرفين إزاءها كقضية أولية، "فلا لاجئ واحد" هو شعار أقصى اليمين وأقصى اليسار.

وبعد، فالحقيقة أن من يطلع على دعايات العدو وتدبيراته جدير عدا الصدمة المذهلة، أن ينتهى إلى أن الهوة العقلية والفكرية بين الجانبين المتصارعين أعمق من كل خيال، وأننا إزاء عقليتين متناقضتين متصادمتين إلى الحد الذى يشكك فى إحداهما أصلا، وكل محاولة للحوار والتفاهم عقم بل سفه عريض. ومن الخير للعرب أن يدركوا أن الحل بالقوة لقضية فلسطين حل لا بديل له فى نهاية المطاف، لا حبا فى الحرب من أجل الحرب، وإنما لأن العدو وحده هو الذى يفرضه فرضا، وليس هذا "غباء وشوفينية وجهلا" كما يتهمنا الصهيونيون، ولكنه حق بل واجب للدفاع الشرعى ضد استعمار سكنى، عنصرى، طائفى، إبادى رجعى، بربرى، (حق، وليس "تزويرا وقحا للتاريخ وتجديفا وتزييفها معيبا" كما تسبنا الصهيوني مرة أخرى"..

منذ أواخر الثمانينات وحين انتهى جمال حمدان من إخراج ملحمته العلمية "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان"، ظهرت عدة كتابات فى الدوائر الجامعية الأجنبية تناولت بالدرس والتحليل ما جاء فى هذه الموسوعة الفذة من آراء وأفكار، وسلطت الضوء على ما ذخرت به من إنجازات إبداعية استكشف فيها المؤلف عبقرية مصر إن مكانا أو زمانا، وناقش على مدى أربعة آلاف صفحة من القطع الكبير هذه العبقرية وخصائصها ومرتكزاتها الحضارية. فصدرت عدة كتابات يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدراسة التحليلية النقدية التى كتبها الأستاذ أولريش هارمن، الأستاذ فى جامعة فرانكفورت ونشرها عام ١٩٨٧ فى المجلة التى تصدرها فى أمريكا عن رابطة دراسات الشرق الأوسط، كما قام أحد أساتذة جماعة ماجكيل بكندا بنشر دراسة بالفرنسية فى نفس السنة تناول فيها ما كتبه جمال حمدان حول القومية العربية.

وكان لرحيل هذا المفكر العالم صدى كبير فى الدوائر العلمية فى الداخل والخارج وامتلأت الأدبيات بتعليقات ودراسات حول فكره وأعماله بعد وفاته.

وسنقتصر فى هذه العجالة على الدراسة التى صدرت مؤخرا فى اليابان بقلم الأستاذ إيجى ناجاساوا، الأستاذ بجامعة طوكيو تحت عنوان: مركزية مصر: دراسة حول "شخصية مصر لجمال حمدان"، وقبل أن نشرع فى تفصيل ما جاء فى هذه الدراسة القيمة، تجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات العربية الإسلامية تحظى فى الوقت الراهن بمكانة متميزة فى الجامعات والمراكز البحثية فى طوكيو وفى غيرها من مدن اليابان الكبرى. فجامعة طوكيو على سبيل المثال تضم معهدا للثقافة الشرقية يعمل به عدد كبير من الأساتذة المتخصصين فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، وأنشئت منذ عدة سنوات الرابطة اليابانية لدراسات الشرق الأوسط تحت رئاسة يوزوايتا جاكى. ويبلغ عدد أعضائها نحو ستمائة عضو، وتصدر مجلة دورية تهتم بالبحوث والدراسات المتعلقة بالثقافات والحضارات العربية الإسلامية.

وقد اهتم الأستاذ ناجاساوا بظاهرة جمال حمدان، وقام بزيارة مصر عدة مرات منقبا وباحثا وجامعا لكل مؤلفاته وما كتب عنه بعد وفاته، فاتصفت دراسته بالجدية والعمق، فبعد مقدمة مطولة عن مصر وأبعاد الحركة الثقافية المعاصرة فيها، ختم المؤلف هذه المقدمة بقوله: "يخيل للمرء وهو أمام مؤلفات وكتابات جمال حمدان أنه يخوض فى لجة محيط متلاطم الأمواج يعج بالمعارف والأفكار والآراء والاستنتاجات، بحيث يصعب عليه أن يستوعبها أو يسبر أغوارها من أول وهلة، ولذا فقد اكتفيت فى هذه المرة بسباحة هادئة على شاطئ هذا المحيط الهادر آملا أن أعود فى القريب للغوص فى أعماقه واستخراج دره بعد زيارتى القادمة لمصر". ثم أورد فى الفصل الأول نبذة عن تاريخ حياة حمدان تحت عنوان "سيرة جغرافى الوطنية المصرية: جمال حمدان" وأتى فى الفصل الثانى بعرض شامل لموسوعة "شخصية مصر" وما جاء بها من دراسات وأبحاث، ثم تطرق فى الفصل الثالث إلى ما كتبه عن التجانس فى البيئة المصرية، كما تحدث فى الفصل الرابع عما كتبه فى هذه الموسوعة عن الوحدة والمركزية والاستبداد الفرعونى.

وقد خلص الأستاذ ناجاساوا فى خاتمة بحثه إلى وجود نوع من التأثير الضمنى لتجربة جمال حمدان الشخصية مع النظام السياسى الذى ساد مصر فى الستينيات والسبعينيات، وأرجع ذلك إلى ما ورد فى الفصل الخاص "بالفرعونية الجديدة" والذى تساءل فيها حمدان عن مدى تغير مصر المعاصرة عن مصر الحديثة، والحديثة عن القديمة فى قضية التركيب الاجتماعى ـ السياسى، ونظام الحكم والسلطة، ونقل عن جمال حمدان قوله "التغير الجوهرى فى الشكل، أما الجوهر فلم يكد يتغير، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقى، الطغيان الفرعونى، بكل أعمدته التقليدية، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم الذى يجرى خلال تاريخ مصر كلها من مينا إلى اليوم، والمتغير الوحيد هو الشكل: ملكية أو جمهورية، وراثية أو انتخابية، مدنية أو عسكرية، وذلك بحسب الظرف أو العصر"، وقد استشف الدكتور ناجاساوا من ذلك أن المؤلف قد تأثر بالبواعث الشخصية عندما كتب ما كتبه فى هذا الصدد، وربما كان هذا الانطباع ما يدخل فى باب التقديرات الشخصية، فالواقع أن جمال حمدان لم يتقيد فى كتاباته بضغوط البيئة المحلية، ولم يسطر قلمه خطا واحدا تحت أى دافع شخصى، فقد كانت صرامته العلمية لا تسمح له بأن تطغى الأمور الشخصية على الموضوعية والمنهجية التى اتسمت بها كتاباته ومؤلفاته، مما ساعده التأمل الحر والإبداع المستنير والرؤية العميقة، وقد كان يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر النتائج النظرية والعملية، ثم يرسم أهم وأدق الدروس والمؤشرات التطبيقية والمستقبلية المتعلقة بقضايا مصر المصيرية، وذلك اقترابا من الحقيقة العلمية الخالدة لا بحثا عن الأمر الواقع الزائل لا محالة، والذى بالمقابل لا مستقبل له، ولقد تجاوز جمال حمدان ذاته فى دراساته وكابد فى ذلك ما كابد دون أن يفقد قطرة واحدة من حسه الوطنى والقومى، وكل ما فعله هو أنه نطق بالحقيقة التى سكت عنها الآخرون.